عايش في حاله

عايش في حاله، وكافي خيره شره، وقافل على نفسه باب بيته، ومقتصر الناس ! هكذا أخذوا يتندرون على نهايته المأساوية، وما وصل إليه !! ويعزون ما حدث له لانغلاقه على نفس، وتحاشي الاختلاط بالناس»فالبعد عنهم غنيمة»كما كان يرددها دائماً !! رغم أنه وفي أيامه الأخيرة قد اقتلع نفسه من هذه العادة السيئة، وانفتح على الناس بعد أن خلا البيت من بعد زواج ابنه الوحيد ورحيله مع زوجته الهولندية التي تعرف عليها عبر الانترنت إلى هولندا، وها هي أنيسته قد رحلت فجأة عن دنياه في ليلة لن ينسها ما بقى له من عمر، عندما لفظت أنفاسها بين يديه في مشهد أفزعه، ورمى بكل هدوئه وخمول حركته، وظل يبكي في نحيبٍ متواصل ويلطم خديه في فزع واضطراب وربكة يدور حول نفسه ولا يعرف ماذا يصنع !! يتجه نحو الباب يفتحه ويعلو صراخه مستنجداً بالجيران الذين

كان يتحاشهم ويتأفف من إلقاء السلام عليهم، لكن لا من مجيب ؟!! يعاود الاندفاع نحو الجثمان الراقد فوق الكنبة البلدي في صالة بيته لعلها تكون غيبوبة السكر التي تداهمها كل حين، يهز الجسد البارد هزاً عنيفاً .. لعل الدماء تسري في أطرافها المتجمدة فتستيقظ، وتطمئنه بأنها ما رحلت عن دنياه ولكنه أمل مذبوح على نصل أمانيه اليائسة !! يغشاه الصمت فلا شيئ يجيبه .. ولا أنفاس تتردد، يواصل لطم خدوده في جنون، ويندفع نحو الباب المفتوح يعلو نحيبه لصراخ زاعق، لعله يستدعي جيرانه ليطلعوا على محنته لكن الصمت المستبد على بلواه لا يآتي بمنقذ يرفع عنه حرج الموقف، ويوجهه للخطوات المعهودة تجاه المتوفاة حتى يتوارى الجثمان في لحده تحت الثرى ماذا يفعل في تلك المصيبة التي ألمت به ؟!! وتساءل في عذاب « هل يحيي وحده في صحراءٍ مقفرة وحده ؟!! يا الله ماذا أفعل ؟!!»

أندفع بكل يأسه وجنونه مرتداً في سربعة !! أمسك سماعة الهاتف يخبر كل معارفه وأهله بدموع حارة، أن أنيسته قد رحلت عن دنياه، فيواسونه عبر الهاتف كما كانت عادته معهم« البقية في حياتك وربنا معاك»يندفع كالمجنون إلى الشارع بصراخه المهووس يعلن للعالم أن أنيسته ماتت فيهب الحلاق والبقال ورواد المقهى نحوه ليحملوا عنه عبء الخطوات المعهودة تجاه المتوفاة، ويشدوا

مـن أزره ويواسـوه، فـيرى الحـلاق يقـوم بتوزيـع الأدوار عـلى بعـض الجـيران، هـذا عليـه أن يسـتدعي في صبـاح الغـد طبيـب الصحـة، وهـذا عليـه أن يذهـب للمدفـن ليقـوم الـتربي بفتـح التربـة، وعـلى بعـض النسـوة إحضـار الكفـن والمـرأة التـي ستغسـلها وتكفنهـا، وهـذا عليـه وهـذا عليـه، وهـو جالـس بجـوار الجثـمان يتابـع جيرانـه في بلاهـة !! وهـم يفعلـون مـا كان ينبغـي عليـه بـأن يفعلـه، في همـة ونشـاط، وينتظـرون زوال الليـل معـه حتـى يبـدأون مـع ميـلاد يـوم جديـد تشـيع جثـمان أنيسـته، ظـل طـوال الليـل يفكـر في هـؤلاء الجـيران الذيـن كان يتحاشـهم، ويخـاف عـلى نفسـه مـن الاختـلاط بهـم، كيـف يراهـم الآن أنـاس طيبـين وهـم يلبـون اسـتغاثته ويرفعـون عنـه حـرج الموقـف، ويشـدون مـن أزره في أحلـك اللحظـات التـي مـرت عليـه، دون أن ينظـروا كيـف كان تعاملـه الجـاف معهـم، فهـو الـذي لم تتحـرك شـفتاه معهـم بالخـير أو بالـشر أو يلقـي عـلى أحـدٍ منهـم تحيـة في صبـاحٍ أو في مسـاء ؟! وهـا هـو الآن يشـكرهم في امتنـان عـلى موقفهـم الجميـل معـه !!

كان عليـه أن يتغـير، وأن يخـرج مـن عزلتـه التـي فرضهـا عـلى نفسـه طيلـة حياتـه، ويختلـط بجيرانـه ويتواصـل معهـم في مـودة وألفـة، ويـرد جميلهـم، حتـى أصبـح طـول الوقـت يقبـع عـلى كـرسي أمـام محـل الحـلاق، يتحـاور معـه أو مـع زبائنـه، يـزل لسـانه فيغفـرون لـه زلتـه، وهـو سـعيدٌ بدنيـاه الجديـدة

وبهذا التغير الذي طرأ عليه، والذي خفف من وطأة الحزن الأليم على فراق أنيسته .. والتي لا يشعر بفقدانها إلا مع وحدته عندما يأويه الليل في بيته، يجلس وحيدا مع ذكرياته، يتأمل ملامح ابنه وأنيسته من خلال الصور المتناثرة على الجدران، أو أمام التلفاز حتي يغلق النوم جفنيه فينام مكانه، لذا كان القرار بفك أسره من عزلته .. وخروجه على الناس يستأنس بهم الأيام الباقية من حياته .. لم يكن يدري أن خروجه من عزلته واختلاطه بالناس سيسبب له كل هذه المشاكل !! ولِمَ لا ؟!! فهو الآن كالطفل الصغير الذي يطل على الحياة لأول مر، فلا يعرف كيف يكون الموقف عندما يستحضره أحدهم لنصرته وشهادة حق في حقه، فيراه يريد أن يتملقه لأته سيشهد زوراً في حقه، وهو لم يتعود على ذلك، فإذا شهد تكون شهادته صدقاً، فيخسر ذلك وذاك، علاوة على الأوضاع الخاطئة التي تربوا عليها، فينقدهم نقداً لاذعاً يغضبهم !! حتى بدأ يفقد مودتهم رويداً رويداً !! فأمن بمقولته الشهيرة »مش ح يجيي من وراهم إلا وجع الدماغ !!«

فاتنس بوحدته وعاود عزوفه عن الاختلاط بالناس، وهم بدورهم ارتاحوا من تدخلاته السمجة التي كان يقرعهم بها .

حتى أحداث الثورة التي دفعت كل الناس للخروج لثورة على الظلم، أو حماية ممتلكاتهم في اللجان الشعبية التي أقاموها، لم ينضم إليهم، ظل قابعاً في بيته يجلس وحده أمام التلفاز يقلب في القنوات بلا اهتمام، لا ينفعل مع الأحداث المشتعلة ولا لحوارات البرامج التي تتناول الأحداث كأنه يشاهد فيلما رومانسياً، كما كان عاد سلبى الموقف لا تحركه الأحداث .

كما وجده الجيران حينما اشتموا رائحة عفنة فاحت من بيته !! فاستدعوا الشرطة وكسروا عليه الباب، فوجدوا جثمانه المنتفخ أمام التلفاز المفتوح على نشرة الأخبار وهي تنقل تلك الأحداث المشتعلة في مصر وفي البلدان العربية، فتندروا على نهايته وهم يضربون أكفهم في تعجب ويقولون« عاش في حاله، ومات في حاله وكان قافل عليه باب بيته ومقتصر الناس !!»

القاهرة في / ٨ ـ ١١ ـ ٢٠١٤